للاستاذ محمد اديب نحوي

... دماءهم يشربون

« ذلك انّ الشقاء يا بني وقف على نفر من الناس لا يستطيعون دفعه ، فيعمدون الى الخنجر والدس ، يشربون من دم الغير ونحن نشرب من دمائهم الى ان يقضي بهم الامر حيث انتهى امر غيرهم »

تقول له العجوز الشمطاء كل مساء وعلى شفتيها العنة العمر .

ـ في مشرق الشمس تمضي ، ومع مغرب الشمس تعود فليتك لم تذهب ولم تعد بل ليتك ذهبت ولم تعد ، وليت الشمس تغرب يوما فارى مواكب المساء وهي تعود حاملة الي البشائر ، بشائر خلاصي منك ، وخلاصك من شقاء هذا العمر الطويل ، وانت يا ملعون ، يا ابن اللصوص الاكابر ، شيطان رجيم ، تأكل الخبز ولكنك لا تعرف كيف تسرق الخبز ، وتمضغ الجبن ولكنك لا تتجرأ على مد يدك الى واجهات الدكاكين ..

ويرفع الفتى ، وجهاً بريئا دقيق التقاطيع ، ويزيح عن جبينه خصلة شقراء ، ثم يبتسم لجدته بسذاجة الاطفال وانها لتنتظر منه جوابا ولكنه لا يعرف كيف يجيب ، وانه لينتظر منها ان تتابع السباب المقذع ولكنها لا تفعل ، حتى اذا ما اعياه انتظارها واعياها انتظاره ، بدرت منه اماءة ساذجة الى السلة الكبيرة التي تحفظ فيها الجدة رغيفين يابسين من الخبز وقطعاً من الجبن وقليلا من العنب ، فهو جائع ، يريد ان يأكل ، وعند ذلك تنفجر العجوز من جديد :

ـ تف على ابناء اليوم ، ما ارق عودهم واطيب سريرتهم ، كان ابوك رحمة الله عليه يسرق الجبن من دكان ابي عفان قبل ان يبلغ السابعة من عمره ، اما اخوك الكبير اسكنه الله فسيح الجنان ، فقد قتل في ليلة واحدة رجلين وسلبها مأة ليرة سورية ، اما انت يا شيطان يا فاسد الاخلاق ، فاعوذ بالله منك ومن اعمالك الناقصات ، قلت لك بالامس ان تسرق لنا بيضة من سلة ام حسين ، فعدت الي صفر اليدين وانت تبتسم ، لماذا ؟ لان ام حسين فقيرة لا تستحق ان تنقص سلتها بيضة واحدة وقلت لك بالامس ان تسور جدار منزل ابي غلوان واسرق من الخبز ما يكفينا تلك الليلة ، فلقد كنت اعلم ان زوجته غائبة عن الدار ، ولكنك ذهبت وعدت بخفي حنين

فيصيح الفتى وهو يقفز على قدميه محتجا :

ـ ولكني سرقتها ؛ ستة ارغفة على ما اذكر ، وهذا كل ما استطاعت ان تحمله يداي

فتلوك العجوز سبة قذرة لا تلبث ان تصبها في اذنه ثم تعود الى الكلام :

ـ وماذا افدنا منها ايها اللص الشريف ؛ سرقتها ثم اعطيتها لابنة الشحاذين الوسخين ؛ فاطمة ؛ والله لاحطمن غداً رأس هذه الفاجرة بنت الفاجرة

ـ ولكنها كانت جائعة يا جدتي !

ـ وانت ؛ لا اشبعك الله خبز الشعير والجبن النتن ، هل كنت شبعانا ، ام كان في بيتك ستة اصناف من اللحم والحلوى يا طول بؤسي بهذا اللص العنيد ، يرحم الناس ولا يرحم نفسه فيا نار جهنم لا تحرقيه لأنه لص ، بل احرقيه ؛ لأنه لص فيلسوف .

وهكذا يدور الحديث ؛ تسكت الجدة ثم تنفجر ويدافع الصبي عن نفسه ثم يعود الى التحديق في السلة الكبيرة وتدور عيناه الى ان تستقر انظاره على الفراش البالي ، وعند ذلك ترق نظراته ، وتغيض الابتسامة عن شفتيه ويتألق في عينيه بريق حزين ثم يمضي من مكانه بخطوات قصيرات فيبادره صوت خافت يشبه الهمس :

ـ انت عدت يا سامي

ـ اجل يا امي ؛ لقد عدت ولكن ؛ صفر اليدين كالمعتاد

ثم يطل على الفراش بوجه ويتناول اليد الصفراء النحيلة

فيغطيها بقبلة طويلة ، ويضمرها بانفاس دافئة ؛ ثم يردف

— لسوف اكون لصا فاشلا يا اماه ، ان حارس الحي يرقبني بنظرات مخيفة ، واخاف ان يقبض علي يوما متلبسا بسرقة عنقود من العنب او بيضة من سلة ام حسين وتكون العاقبة وخيمة

وتقبل عليه امه وهي تستوي على يدين ضعيفتين ، فيبدو وجهها تحت ذبالة المصباح الغازي ، شاحبا كأنه وجه ميت ، رقيقا كأنه لفتاة في الثالثة عشرة ، فتضمه الى صدرها وتمسح على شعره بحنان :

— ولماذا تسرق يا سامي ، لاتستمع الى جدتك بعد الآن انها مجنونة حمقاء ؛ حاول ان توجد نفسك عملا شريفا تكسب منه الخبز ؛ بعرق الجبين

ولكن سامي يجيب بصوت حزين :

— لقد حاولت يا امي ولكن احدا من اهل الحي لا يريدني ان اشتغل عنده الجميع يدعونني لصاً وما انا باللص ، اللهم الا الطفلة فاطمة ، بنت الجيران ، وتالله لو كان ابي على قيد الحياة لطلبت منه ان يشتري لها قرطا من الذهب الاحمر ، او ثوبا من المخمل الموشى بالقصب .

وتدور به بعينيها اذ تتذكر زوجها ثم تستسلم الى خيال حافل بالرؤى ، ويسألها الفتى مرارا فلا تجيب ، كل هذا والجدة العجوز ، تعد الخبز في طبق القش وترتب عناقيد العنب في صحن الخزف ، وتلعن الايام التي مضت بالعز والجاه ، والمشنقة التي اودت بحياة الغوالي ، الى ان تنتهي من الطبق او تكاد فتدعوهما وهما لا يجيبان لها سؤالا ؛ وتلتفت لترى الام وهي تحدق الى الفضاء بعينين ثابتتين ، وتصغي لتسمعها وهي تتمتم خلال دموعها :

— اي بني ، لم يكن ابوك مجرماً ، ولم يولد ويداه مغموستان في الدم ، ولكنه لقب ورثه عن ابيه ، كان الناس يدعونه يا ابن اللص ، فلم يستطع الا ان يكون لصا ، ذلك ان الشقاء يا بني وقف على نفر من الناس لا يستطيعون له دفعا ، فيعمدون الى الحجر او المسدس ، فيشربون من دم الغير ، ونحن نشرب من دمائهم ، الى ان ينتهي بهم الامر حيث انتهى امر غيرهم .

وتبتسم الام اذ تذكر حب زوجها :

— ولقد احبني ابوك وكان في اول الامر شريفا لا يسرق إلا ليأكل ونأكل ، ولكني مرضت وألح علي داء عضال ذهب ببصري ، ومنذ ذلك اليوم ، جن جنون ابيك ياسامي ، فتجرأ على ما لا يتجرأ عليه عقلاء اللصوص ، ذلك انه ابتدأ يسطو على قصور الاغنياء ، ويسلبهم اموالهم وتلك هي الخطيئة الكبرى ، وانت اذا كنت لصاً ، فلا تسرق الا الفقراء امثال ام حسين وابي علوان .

— او فاطمة بنت الجيران

— أجل يابني .. مثل فاطمة لا تستطيع ان تشكوك الى الشرطي .

— ولكن ابي كان على حق يا اماه ، بحرام ان اسرق فاطمة او ام حسين وادع مثل هذا الرجل الغني ، الحاج حمدي افندي الذي يسير في الحي رافع الراس ؛ انيق الثياب ، بادي الغرور ، يحييه الناس فلا يرد لهم تحية ولا يجيب سلاما .

ووقف سامي فجأة عند هذا القدر من الكلام وهو يحدق بفضول الى امه ، والى دمعتين كبيرتين انحدرتا ببطء على الوجنة الشاحبة ، فسألها : أتبكين يا اماه ؟

— اجل اني ابكي ، ذكرني الحاج حمدي افندي بذلك اليوم الذي داهمت فيه منزلنا ثلة من الشرطة وعلى راسها هذا الرجل البغيض الحاج حمدي افندي الذي لم يتورع عن الوشاية بأبيك المسكين ، منذ ذلك اليوم لم يعد ابوك الى المنزل ثم مات بعد عامين في السجن ، رحمه الله رحمة واسعة .

تقول له العجوز كل صباح عند ماتخرج به الى ارض الحارة انقذرة :

— عندما تسرق يا سامي ، لا تلتفت وراءك ابدا ، واذا دهمك الشرطي فاركض بكل قوتك ثم ادخل احد المنعطفات واقفز الى برميل الفاذورات واختبئ هناك الى أن يمضي المطاردون .

ومضى سامي في ذلك اليوم ، وكان يوما مشرقا من ايام الربيع ، فمر بفاطمة ابنة الجيران وحياها على مهل ، وعبث بجدائل شعرها انفاسهم فابتسمت له واعطته قطعة من الخبز

فراح يمنعها وهو يحدق النظر الى عينيها الواسعتين حيث تنام احلامه الجائعة وأحلامها الظمآى الى الحياة ، ومضى بعد ساعة في الطريق يحاور النفس ويقنعها ، ويبحث في اعماق الفكر عن حل لأزمة الخبز والجبن والبيض ، ويتذكر سباب جدته الفاجرة ، ومرض امه المزمن ، واذابه فجأة ، يلمح الحاج حمدي افندي وهو يقبل من آخر الحي ، بادي الغرور مرفوع الجبهة وقد سارت الى جانبه طفلة جميلة شقراء ، ترفل في ثوب من الفرو اللامع فاشرأب سامي بعنقه يحدق النظر الى الرجل الذي قاد اباه الى الموت ثم سمع فاطمة الى جانبه وهي تتنهد بألم دفين :

— انظر الى هذا الفرو الجميل ، يا سامي .

فسألها بادي الاعجاب : — هل تشتهينه

وجاءه جوابها يذوب نقمة ويقطر حقداً : — اني لا انزل عن نصف عمري مقابل ارتدائه مرة واحدة ، فقط فمط شفتيه متذمراً :

— تبيعين نصف عمرك في سبيل فرولامع ، يالك من حمقاء لو قلت مقابل رغيفين من الخبز الابيض واقة من اللحم المشوي لكان ذلك معقولا . اما .. ولكنك على كل حال فتاة حمقاء

فهتفت بغضب يشوبه قليل من الاستسلام وكثير من اللهفة :

— فلأكن حمقاء ، ولكني اتمنى ان ارتديه ولأمت جوعا بعد ذلك

فالتفت اليها ، وقال وهو يجمع في فمه اطراف بصقة كبيرة ثم يرمي بها الارض باحتقار :

— تفه على النساء القليلات العقل ، لسوف آتيك به الليلة فاطمئني

لعل سامي لم يلحظ حارس الحي وهو يتجول باحثاً منقبا في ذلك المساء ، وكان المصلون يهرعون الى المسجد فلقد اقترب موعد صلاة العشاء وام حسين تباشر ترتيب البيض في السلة الكبيرة استعدادا للانصراف وابو عفان يتوضأ امام باب دكانه ثم يرفع اصبعيه بالشهادتين واطمأن سامي الى سكون الحارة وراح يتسلق جدار منزل الحاج حمدي افندي وفاطمة عند المنعطف ترقبه مبهورة الانفاس . وكانت جدته تنتظره في البيت وقد اعدت له من السباب كل ما تستطيع ، وامه نائمة وليست بالنائمة ، فقد اقلقها تأخره ، واحست في نفسها خوفا غامضا فسألت الجدة عنه فلم تجبها الجدة الا بشتمتين ، فنهضت من فراشها وهي تتلمس الغطاء الاسود لتتدثر به عندما سمعت في سكون الليل طقا ناريا ، فتداعت الى الأرض وهي تهتف : سامي ..

اما فاطمة فقد شاهدت كل شيء وهي كامنة عند بيت الحاج حمدي افندي ، رأته قبل ان يبلغ اعلى الجدار وهو يستدير اليها ملوحا بيديه ، وحانت التفاتة من حارس الحي فرأى شبحاً يهم بالوثوب ، فشهر مسدسه ، ودوت رصاصة تلتها صرخة ثاقبة وبعينين ملؤهما الرعب رأته ، وهو يهوي ويهوي ، ثم يستقر على الارض ، وتلا ذلك سكون طويل .

فتح عينيه وهم يحملونه الى المحفة ، فرأى حوله جمعا غفيراً يحيطون بسيارة الاسعاف وسمع جدته وهي تصخب كعادتها : — تفه على هالعمر .. وعند ذلك ارتفع صوت محرك السيارة فرفع رأسه في محاولة اخيرة ورقصت على شفتيه كلمتان ملؤهما دم احمر : اين امي . ثم اغمض عينيه واحتواه ظلام السيارة وسمع صوت الباب وهو يغلق دونه ابواب الحياة ثم ساد السكون .

بينما كانت السيارة تمضي ، والناس واجمون ، همس ابو علوان وهو يمسح دمعتين كبيرتين :

— مسكين سامي ، انه لم يعرف ان امه سبقته الى سيارة الاسعاف ..

وتمتمت ام حسين وهي تحمل سلة البيض وتمضي لشانها :

— انهما لم يفترقا ابدا حتى في طريق الموت !

وكان الشيخ سالم اذ ذاك ، يرقب الافق المظلم البعيد من ماذنة المسجد .. ثم يرفع صوته باذان العشاء : الله اكبر الله اكبر .. اشهد ان لا إله الا الله .

سوريا : محمد أديب نحوي